سلسلة في ظلال السنة

الحديث التاسع

صناع المعروف

الدكتور الشيخ
سالم بن عبدالغني الرافعي

الحديث التاسع

صنائع المعروف

بسم الله الرحمن الرحيم

سلسلة في ظلال السنَّة

الحديث التاسع
صنائع المعروف

الدكتور الشيخ
سالم بن عبدالغني الرافعي

دار ابن حزم

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى
١٤٣٨هـ ـ ٢٠١٧م

تم طبع هذه الرسالة على نفقة أبناء الحاج بهاء الجمل رحمه الله تعالى صدقة عن روح أخيهم المرحوم فؤاد بهاء الجمل رحمه الله تعالى

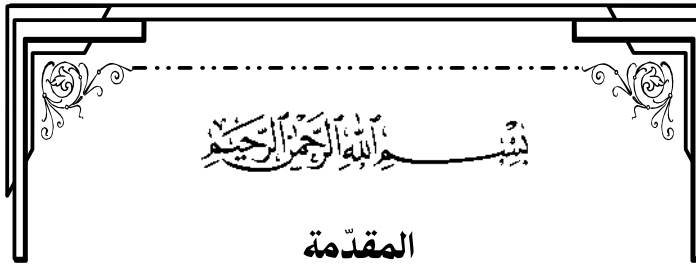

المقدّمة

اللَّهم إنّا نحمدك حمداً يوافي نِعمك، ويُكافي مَزيدك، لا نُحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك. ونصلي ونسلم على عبدك ورسولك وصفوتك من خلقك محمد بن عبدالله صلوات ربي وسلامه عليه، **وبعد**. . .

فإن السنّة النبوية ذَخَرت بكثير من الأحكام والمواعظ والعِبر. وقد دَرَج العلماء على مرّ العصور على تأليف المصنّفات في شرح أحاديث الأحكام وغيرها من أنواع الحديث، ليسهُل على الناس الإفادة منها.

ومعلوم أن لكل عصرٍ درجتَه في فهم العلوم واستيعابها، فما كان شرحاً يفهمه أهل عصر، قد يستعجم على من بعدهم حتى يحتاجوا إلى شرح للشرح، مع ما يستجدّ في حياة الأمة من هموم وأوضاع وتغيّرات.

لذلك حَسُن في رأيي أن يكون الشرح مناسباً لأهل كل عصر، يراعي مستواهم العلمي واللغوي، كما يتطرق إلى مشاكلهم المستجدّة، وليس إلى مشاكل عصر سبق لم تعد ذات بال عندهم.

وقد بدأت هذه الخطوة في خُطب الجمعة، إذ بدأت أشرح فيها جملة من أحاديث النبي ﷺ، وأربطها بالواقع الذي نعيش فيه. وهذا أعظم أثراً في النفوس من تحويل خطب الجمعة إلى نشرات أخبار سياسية، تخلو من ذكر الآيات والأحاديث، ولا تزيد في معطياتها عن أي نشرةٍ للأخبار، فتخرج بالخطبة عن موضوعها الذي شرعت لأجله، وهو وعظ الناس وتعليمهم.

ثم رأيت نشر هذه الخُطب في رسائل صغيرة عسى أن يعمّ نفعها، وسمّيتها: «**في ظلال السّنة**».

والله أسأل أن يجعل أعمالنا خالصة لوجهه الكريم.

وكتبه الدكتور الشيخ
سالم بن عبدالغني الرافعي
في طرابلس ـ لبنان
بتاريخ ٢١ / جمادى الآخرة/ ١٤٣٨هـ
الموافق له ٢٠/ آذار/ ٢٠١٧م

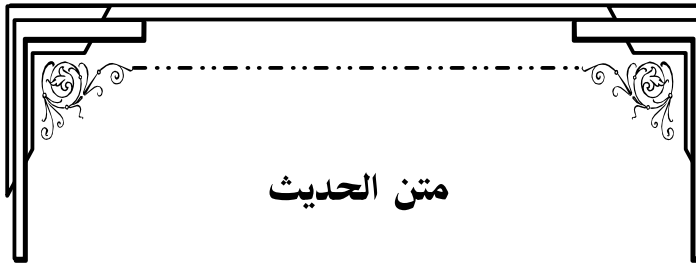

متن الحديث

عن أبي أمامة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**صنائعُ المعروف تقي مصارعَ السوء، وصدقةُ السرّ تُطفىء غضبَ الربّ، وصلةُ الرّحم تزيدُ في العُمُر**»[1].

شرح الحديث:

هذا حديث عظيم يبيّن فيه النبي ﷺ ثواب صنائع المعروف، وصدقة السرّ، وصلة الرحم.

ونبدأ بشرح الكلمة الأولى بعون الله تعالى.

فصنائع المعروف: جمع صنيعة المعروف، وهي: ما يصطنعه الإنسان من خير مع الناس، سواء كان هذا الخير مالاً، كالصدقة والهديّة وتسديد ديون الغارمين، أو

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير برقم (٨٠١٤)، وحسّنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب برقم (٨٨٩).

كان جاهاً، كمن يشفع شفاعة حسنة في تفريج كُربة مهموم ونصرة مظلوم، أو كان بمعاملة الناس معاملة حسنة، أو غير ذلك من الأمور التي تنفع الناس.

قال العامري رَحِمَهُ اللَّهُ: «المعروف هنا يعود إلى مكارم الأخلاق مع الخلق، كالبِرّ والمواساة بالمال، والتعهّد في مهمّات الأحوال: كسد خلّة، وإغاثة ملهوف، وتفريج مكروب، وإنقاذ محترم من محذور...»[1].

وقد وردت الإشارة إلى أنواع كثيرة من صنائع المعروف في الأحاديث الشريفة.

فروى الأصبهاني عن عبدالله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أن رجلاً جاء إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: «يا رسول الله، أيّ النّاس أحبّ إلى الله؟ فقال: «**أحبّ النّاس إلى الله أنفعهم للناس، وأحبّ الأعمال إلى الله** عَزَّ وَجَلَّ: **سرور تُدخله على مسلم، تَكشف عنه كُربة أو تقضي عنه ديناً أو تطرُد عنه جوعاً، ولأن أمشي مع أخٍ في حاجة أحبّ إليّ من أن أعتكف في هذا المسجد** ـ يعني: مسجد المدينة ـ **شهراً. ومن كظم غيظه، ولو شاء أن يُمضيَه أمضاه، ملأ الله قلبه يوم القيامة رضىً. ومن مشى مع أخيه في**

(١) فيض القدير (٤/ ٥٨٠).

حاجة حتى يقضيَها له ثبّت الله قدميه يوم تزول الأقدام»[1].

وروى الترمذي عَنْ أَبِي ذَرٍّ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «تَبَسُّمُكَ فِي وَجْهِ أَخِيكَ لَكَ صَدَقَةٌ، وَأَمْرُكَ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهْيُكَ عَنِ الْمُنْكَرِ صَدَقَةٌ، وَإِرْشَادُكَ الرَّجُلَ فِي أَرْضِ الضَّلَالِ لَكَ صَدَقَةٌ، وَبَصَرُكَ لِلرَّجُلِ الرَّدِيءِ الْبَصَرِ لَكَ صَدَقَةٌ، وَإِمَاطَتُكَ الْحَجَرَ وَالشَّوْكَةَ وَالْعَظْمَ عَنِ الطَّرِيقِ لَكَ صَدَقَةٌ، وَإِفْرَاغُكَ مِنْ دَلْوِكَ فِي دَلْوِ أَخِيكَ لَكَ صَدَقَةٌ»[2].

وروى الشيخان عَنْ أَنَسٍ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَغْرِسُ غَرْسًا، أَوْ يَزْرَعُ زَرْعًا، فَيَأْكُلُ مِنْهُ طَيْرٌ أَوْ إِنْسَانٌ أَوْ بَهِيمَةٌ، إِلاَّ كَانَ لَهُ بِهِ صَدَقَةٌ»[3].

وروى الشيخان عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ

---

(١) رواه الأصبهاني، وحسّنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب برقم (٢٦٢٣).

(٢) أخرجه الترمذي برقم (٢٠٨٣)، وصحّحه الألباني في صحيح وضعيف سنن الترمذي برقم (١٩٥٦).

(٣) أخرجه البخاري برقم (٢٣٢٠)، ومسلم برقم (٤٠٥٥).

رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**لاَ يَمْنَعُ جَارٌ جَارَهُ أَنْ يَغْرِزَ خَشَبَهُ فِي جِدَارِهِ**»(١).

وروى ابن ماجه عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**إِنَّ مِنَ الناسِ مَفَاتِيحَ لِلْخَيْرِ مَغَالِيقَ لِلشرّ، وَإِنَّ مِنَ الناسِ مَفَاتِيحَ لِلشرِّ مَغَالِيقَ لِلْخَيْرِ، فَطُوبَى لِمَنْ جَعَلَ اللَّهُ مَفَاتِيحَ الْخَيْرِ عَلَى يَدَيْهِ، وَوَيْلٌ لِمَنْ جَعَلَ اللَّهُ مَفَاتِيحَ الشرّ عَلَى يَدَيْهِ**»(٢).

والأحاديث في هذا الباب كثيرة، وهي تحثّ المؤمنين على المبادرة إلى مساعدة الناس وقضاء حوائجهم.

صنائع المعروف عند الأنبياء:

والأنبياء هم أعظم الناس صنعاً للمعروف، وأحرص الناس على نفع الناس، ويكفيهم أنهم عاشوا حياتهم كلها من أجل هداية الناس ودعوتهم إلى ما فيه سعادتهم في الدنيا والآخرة. يَدْعُون من ضَلَّ إلى الهُدى، ويُبَصِّرُونَ بنور الله أَهْلَ العَمى، فكَمْ من قَتِيلٍ

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٢٤٦٣)، ومسلم برقم (٤٢١٥).

(٢) أخرجه ابن ماجه برقم (٢٤٣)، وحسّنه الألباني في صحيح وضعيف سنن ابن ماجه برقم (٢٣٧).

لإبْليسَ قد أَحْيَوهُ، وكمْ من ضَالٍ تائهٍ قد هَدَوْه، فبذلوا في سبيل ذلك أغلى ما يملكون، ولم يسألوا الناس أجراً، فلله ما أَحْسَنَ أثَرهُم على النَّاس، وما أَقْبَح أثر النَّاسِ عليهم.

ونفع الأنبياء للناس لم يقتصر على دعوتهم إياهم إلى طريق الحق والهدى، بل تعدّى ذلك إلى نفع الناس بكل ما أمكن نفعهم به، فكانوا بذلك أحرص الناس على صنائع المعروف.

فهذا نبيّ الله ابراهيم عليه السلام يأتيه ضيوف لا يعرفهم، فيسارع إلى إكرامهم حتى قبل أن يتعرّف عليهم. قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾﴾[1]. فقوله: ﴿قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾ أي: غير معروفين. وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾﴾[2]، أي: فما أبطأ وما تأخر إبراهيم عليه السلام عن إكرام ضيوفه وهو لا يعرفهم، بل بمجرد أن انتهى من رد التحيّة عليهم حتى أسرع إلى أهله فجاءهم بعجل

---

(١) الذاريات: ٢٤ ـ ٢٦.

(٢) هود: ٦٩.

مشوّي، وهذا الفعل منه عليه السلام يدل على سعة جوده، وعظيم سخائه، فإن من آداب الضيافة، تعجيل القِرى للضيف[1].

وهذا نبيّ الله موسى عليه السلام يُسرع في مساعدة فتاتين مسكينتين، وكان ذلك قبل أن يبعثه الله تعالى رسولاً إلى بني إسرائيل. قال تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِّ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾[2].

أي وحين ورد موسى عليه السلام ماء مدين، وهو بئر يسقي منها الناس مواشيهم، وجد على الماء جماعة كبيرة من الناس يسقون أنعامهم ومواشيهم، ووجد من دونهم امرأتين تمنعان ماشيتهما من الاختلاط بمواشي الناس. فسألهما لا تطفلاً وإنما حالهما دعاه إلى سؤالهما، لأنه رأى الناس يسقون مواشيهم ويصدرون فوجاً بعد فوج، والمرأتان قائمتان على ماشيتهما

---

(١) انظر الوسيط لسيد طنطاوي (١/ ٢٢٣٢).

(٢) القصص: ٢٣ ـ ٢٤.

تمنعانها عن الحوض حتى لا تختلط ولا تشرب، فسألهما لذلك قائلاً: «ما شأنكما؟» فأجابتاه قائلتين: «لا نستطيع أن نسقي مواشينا مع الناس لضعفنا عن المزاحمة وعدم رغبتنا في الاختلاط بالرجال، ولنا أب ولكنه كبير في السن لا يقوى على سقي هذه الماشية بنفسه، فنحن نسقيها ولكن بعد أن يذهب الرعاة»، فلما علم عذرهما سقى لهما ماشيتهما(١).

وهذا نبينا ﷺ يشفع لعبدٍ لدى زوجته التي فارقته حتى تعود إليه، فردّت شفاعته. روى البخاري عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: «أَنَّ زَوْجَ بَرِيرَةَ كَانَ عَبْدًا يُقَالُ لَهُ مُغِيثٌ، كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْهِ يَطُوفُ خَلْفَهَا يَبْكِي، وَدُمُوعُهُ تَسِيلُ عَلَى لِحْيَتِهِ. فَقَالَ النَّبِي ﷺ لِعَبَّاسٍ: «**يَا عَبَّاسُ أَلاَ تَعْجَبُ مِنْ حُبِّ مُغِيثٍ بَرِيرَةَ، وَمِنْ بُغْضِ بَرِيرَةَ مُغِيثًا**». فَقَالَ النَّبِي ﷺ: «**لَوْ رَاجَعْتِهِ**». قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ تَأْمُرُنِي؟ قَالَ: «**إِنَّمَا أَنَا أَشْفَعُ**». قَالَتْ: لَا حَاجَةَ لِي فِيهِ»(٢).

وقد ذكرت خديجة رضي الله عنها أنواعاً من صنائع المعروف في وصفها للنبي ﷺ فقالت: «...فَوَاللَّهِ إِنَّكَ لَتَصِلُ

---

(١) انظر: أيسر التفاسير للجزائري (٣/ ١٦٣).

(٢) أخرجه البخاري برقم (٥٢٨٣).

الرَّحِمَ، وَتَصْدُقُ الْحَدِيثَ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ، وَتَكْسِبُ الْمَعْدُومَ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ». ومعنى قولها: «وتحمِل الكَلّ» أي: تعين من لا يستقلّ بأمره، فيدخل في حمل الكلّ: الإنفاق على الضعيف واليتيم والأرامل والعيال من النساء والرجال. «وتَكسب المعدوم» بفتح التاء هو الصحيح المشهور، وروي بضمها، ذكره النووي، والمعنى: تحصّل المال للخير أو تعطي المحتاج، فكأن الفقير معدوم في نفسه أو في نظر الغني أو لأن الفقر يقتضي الفناء والإسكان كما أن الغنى يوجب الظهور والتحرك والطغيان. «وتَقري الضيف» أي: تطعم الضيف النازل بك. «وتعين على نوائب الحق»، أي تعين من نزلت به النوائب وهي المصائب[1].

وقوله: «**تقي مصارع السوء**» أي: تدفع صنائع المعروف عن أصحابها مِيتة السوء. وقد ورد تفسيرها بهذا في حديث رواه الترمذي عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**إِنَّ الصَّدَقَةَ لَتُطْفِئُ غَضَبَ**

(١) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (١٧/ ٢١).

الربِّ وَتَدْفَعُ مِيتَةَ السُّوءِ»[1]، والصدقة هي من جملة صنائع المعروف.

وأما معنى ميتة السوء، فقد قال الحافظ العراقي رَحِمَهُ اللَّهُ في بيانها: الظاهر أن المراد بها ما استعاذ منه النبي ﷺ من الهَدْم والتردّي والغرق والحَرق، وأن يتخبّطه الشيطان عند الموت، وأن يُقتل في سبيل الله مدبراً، وقال بعضهم: هي موت الفجاءة، وقيل: ميتة الشهرة كالمصلوب[2].

ويشير الحافظ العراقي رَحِمَهُ اللَّهُ إلى ما رواه أبو داود عن أبي اليسر: أن رسول الله ﷺ كان يدعو: «**اللَّهم إني أعوذ بك من الهَدْم، وأعوذ بك من التردّي، وأعوذ بك من الغرَق والحرْق والهرَم، وأعوذ بك أن يتخبّطني الشيطان عند الموت، وأعوذ بك أن أموت في سبيلك مدبراً، وأعوذ بك أن أموت لديغاً**»[3].

---

(١) أخرجه الترمذي برقم (٦٦٦) وحسّنه، وضعّفه الألباني في صحيح وضعيف سنن الترمذي برقم (٦٦٤).

(٢) انظر: مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٦/٣٤٣) لأبي الحسن المباركفوري المتوفى سنة ١٤١٤هـ.

(٣) أخرجه أبو داود، وصحّحه الألباني في صحيح وضعيف سنن أبي داود برقم (١٥٥٢).

قال شيخنا عبدالمحسن العباد رَحِمَهُ اللَّهُ في شرحه لهذا الحديث: قوله: «**اللَّهم إني أعوذ بك من الهدم**» يعني: سقوط جدار أو بنيان؛ لما يحصل بسبب ذلك من الأضرار التي تلحق الجسم، فيصير مُقعداً أو يحصل له ضرر كبير في صحته، فلا يتمكن من أن يأتي بالأمور التي كان يستطيعها قبل أن يحصل له ذلك الضرر. وقوله «**وأعوذ بك من التردّي**» يعني: السقوط من شاهق، سواء من جبل، أو من عمارة، أو أي مكان عال، فيحصل له بسببه التكسّر والضرر. قوله «**وأعوذ بك من الغرق**» يعني: كون الإنسان يحصل له الغرق. قوله: «**والحرق**» يعني: كونه يحترق بالنار، فيتضرّر بذلك. قوله: «**والهرم**» وهو كون الإنسان يتقدم به السنّ، ويردّ إلى أرذل العمر. قوله: «**وأعوذ بك أن يتخبّطني الشيطان عند الموت**» يعني: أن يستولي عليه الشيطان عند الموت، ويصرفه عما ينبغي أن يكون عليه من الخاتمة الحسنة.

قوله: «**وأعوذ بك أن أموت في سبيلك مدبراً**» يعني: فاراً من الزحف غير متحرّف لقتال أو متحيّز إلى فئة كما استثناهما الله تعالى. قوله: «**وأعوذ بك أن أموت لديغاً**» يعني: من ذوات السّموم. وقد جاء أن الغريق والمحروق واللديغ شهداء، لكن إذا بقي في قيد الحياة فقد يحصل له أمور لا يستطيع أن يصبر معها، فيصير

عنده تحسّر وضجر، والاستعاذة من هذه الأشياء عامّة، سواء مات منها أو لم يمت، فيستعاذ منها»[1]. وروى أحمد عَنْ عَبْدِاللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ ﷺ: «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ اسْتَعَاذَ مِنْ سَبْعِ مَوْتَاتٍ: مَوْتِ الْفَجْأَةِ، وَمِنْ لَدْغِ الْحَيَّةِ، وَمِنْ السَّبُعِ، وَمِنْ الْحَرَقِ، وَمِنْ الْغَرَقِ، وَمِنْ أَنْ يَخِرَّ عَلَى شَيْءٍ، أَوْ يَخِرَّ عَلَيْهِ شَيْءٌ، وَمِنْ الْقَتْلِ عِنْدَ فِرَارِ الزَّحْفِ»[2].

ومعنى موت الفجاءة: أن يأتيه الموت بغتة من غير تقدّم سبب. وسبب التعوّذ منه، لما في موت الفجأة من خوف حرمان الوصيّة وترك الاستعداد للمعاد بالتوبة وغيرها من الأعمال الصالحة، وكذا حرمانه من المرض قبل الموت حيث يكون كفارة لذنوبه.

(١) شرح سنن أبي داود للشيخ عبدالمحسن العباد (٨/ ٣٢٨).

(٢) أخرجه أحمد برقم (٦٣٠٦)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٣/ ٥٧): رواه أحمد والبزّار والطبراني في الكبير والأوسط، وفيه ابن لهيعة، وفيه كلام. وقال الشيخ شعيب الأرنؤوط: إسناده ضعيف.

ثمرات صنائع المعروف

إذاً من ثمرات اصطناع المعروف مع الناس: الوقاية من ميتة السوء، وهذه إحدى ثمراته، وهناك ثمرات أخرى، منها: الوقاية من المصائب الكبيرة. روى الحاكم عن أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**صنائع المعروف تقي مصارع السوء والآفات والهلكات**...»[1]، فالآفات والهلكات هي: المصائب الكبيرة التي تقصم الظهر وتهلك المرء. فهذه كلها من ثمرات اصطناع المعروف في الدنيا، وأما ثمراته في الآخرة فهي كثيرة. ومنها:

١ ـ بقاء الجاه في الآخرة:

ورد في تتمّة حديث أنس ﷺ، الذي أوردناه

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك على الصحيحين برقم (٤٢٩)، وصحّحه الألباني في صحيح وضعيف الجامع الصغير برقم (٧٢٤٣).

آنفاً، أن النبي ﷺ قال: «. . . **وأهل المعروف في الدنيا هم أهل المعروف في الآخرة**». ففي هذه الجملة يبيّن النبي ﷺ جزاء صنيعة المعروف في الآخرة، وهو أن يجعله الله تعالى من أهل المعروف في الآخرة كما كان في الدنيا. ولكن ما معنى كونه من أهل المعروف في الآخرة؟ والجواب ورد في حديث رواه ابن أبي الدنيا عن عطاء عن ابن عباس رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**أهل المعروف في الدنيا أهل المعروف في الآخرة**». قيل: وكيف ذاك؟ قال: «**إذا كان يوم القيامة جمع الله تعالى أهل المعروف، فقال: قد غفرتُ لكم على ما كان فيكم، وصانعتُ عنكم عبادي فهِبوها اليوم لمن شئتم، لتكونوا أهل المعروف في الدنيا وأهل المعروف في الآخرة**»[1].

قال ابن عباس رضي الله عنه موضّحاً معنى هذا الحديث قال: «يأتي أصحابُ المَعْرُوف في الدنيا يومَ القيامة فيُغْفر لهم بمعْرُوفهم، وتَبْقَى حَسَناتُهم جامّةً، فيُعْطُونها لمَن زَادَت سيّآتُهُ على حَسَناته، فيُغْفَر له ويُدخل الجنة، فيجتَمع لهم الإحْسان إلى الناس في الدنيا والآخرة»[2]،

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في قضاء الحوائج (١/ ٣٢).
(٢) النهاية في غريب الأثر (٣/ ٤٤٢).

أي كما كانوا وجهاء في الدنيا، يَقصدهم أصحابُ الحوائج والكُرُبات فيُنجدونهم ويُغيثونهم ببذلهم لهم من جاههم ومالهم، كذلك يجعلهم الله تعالى وجهاء في الآخرة، بأن يَغفر لهم كامل ذنوبهم بحسنة اصطناعهم للمعروف، ويُبقي لهم سائرَ حسناتهم كاملة، فيَقصدهم أصحابُ الحوائج والكُربات ممن قصّرت بهم أعمالُهم عن دخول الجنة، فيُنجدونهم ويُغيثونهم ببذلهم لهم من حسناتهم حتى تبلّغهم دخول الجنة.

٢ ـ وتيسير الحساب:

روى البخاري ومسلم عن رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أنه قال: «**أُتِي اللَّهُ بِعَبْدٍ مِنْ عِبَادِهِ آتَاهُ اللَّهُ مَالاً، فَقَالَ لَهُ: مَاذَا عَمِلْتَ فِي الدُّنْيَا؟ قَالَ: يَا رَبِّ آتَيْتَنِي مَالَكَ فَكُنْتُ أُبَايِعُ النَّاسَ، وَكَانَ مِنْ خُلُقِي الْجَوَازُ، فَكُنْتُ أَتَيَسَّرُ عَلَى الْمُوسِرِ وَأُنْظِرُ الْمُعْسِرَ**»، وفي رواية: «**فَكُنْتُ أَقْبَلُ الْمَيْسُورَ وَأَتَجَاوَزُ عَنِ الْمَعْسُورِ، فَقَالَ اللَّهُ: أَنَا أَحَقُّ بِذَا مِنْكَ، تَجَاوَزُوا عَنْ عَبْدِي**»[1].

---

(١) أخرجه البخاري عن حذيفة برقم (٢٠٧٧)، ومسلم عن عقبة بن عامر وأبي مسعود الأنصاري برقم (٤٠٧٩).

٣ ـ ومغفرة الذنوب:

روى البخاري ومسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**بَيْنَا رَجُلٌ يَمْشِي فَاشْتَدَّ عَلَيْهِ الْعَطَشُ، فَنَزَلَ بِئْراً فَشَرِبَ مِنْهَا، ثُمَّ خَرَجَ فَإِذَا هُوَ بِكَلْبٍ يَلْهَثُ، يَأْكُلُ الثَّرَى مِنَ الْعَطَشِ. فَقَالَ: لَقَدْ بَلَغَ هَذَا مِثْلُ الَّذِي بَلَغَ بِي فَمَلأَ خُفَّهُ ثُمَّ أَمْسَكَهُ بِفِيهِ، ثُمَّ رَقِيَ فَسَقَى الْكَلْبَ، فَشَكَرَ اللَّهُ لَهُ فَغَفَرَ لَه**». قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَإِنَّ لَنَا فِي الْبَهَائِمِ أَجْراً؟ قَالَ: «**فِي كُلِّ كَبِدٍ رَطْبَةٍ أَجْرٌ**»(١).

وروى الشيخان عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِي بِطَرِيقٍ، وَجَدَ غُصْنَ شَوْكٍ عَلَى الطَّرِيقِ فَأَخَّرَهُ، فَشَكَرَ اللَّهُ لَهُ، فَغَفَرَ لَهُ**»(٢).

٤ ـ ودخول الجنة:

روى مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنِ النَّبِي ﷺ قَالَ: «**لَقَدْ رَأَيْتُ رَجُلاً يَتَقَلَّبُ فِي الْجَنَّةِ فِي شَجَرَةٍ قَطَعَهَا مِنْ ظَهْرِ الطرِيقِ كَانَتْ تُؤْذِي النَّاسَ**»(٣).

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٢٣٦٣)، ومسلم برقم (٥٩٩٦).

(٢) أخرجه البخاري برقم (٦٥٢)، ومسلم برقم (٥٠٤٩).

(٣) أخرجه مسلم برقم (٦٨٣٧).

التحذير من عدم بذل المعروف للقادر عليه

وكما يُثاب المرء ثواباً عظيماً على اصطناعه للمعروف، كذلك يتحمّل إثماً عظيماً إذا ترك المعروف وهو قادر على اصطناعه. قال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝٦ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ۝٧﴾[1]، فقوله تعالى: ﴿وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ﴾ أي: لا يُعطون من سألهم ماعوناً كالإبرة والقِدر والمِنجل ونحوه مما يُنتفع به ويُردّ بعينه كسائر الأدوات المنزلية. وروى البخاري عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِي ﷺ قَالَ: «**ثَلاَثَةٌ لاَ يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ: رَجُلٌ حَلَفَ عَلَى سِلْعَةٍ لَقَدْ أَعْطَى بِهَا أَكْثَرَ مِمَّا أَعْطَى وَهْوَ كَاذِبٌ، وَرَجُلٌ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ كَاذِبَةٍ بَعْدَ الْعَصْرِ لِيَقْتَطِعَ بِهَا مَالَ رَجُلٍ مُسْلِمٍ، وَرَجُلٌ مَنَعَ**

(١) الماعون: ٤ ـ ٧.

فَضْلَ مَاءٍ، فَيَقُولُ اللَّهُ: الْيَوْمَ أَمْنَعُكَ فَضْلِي، كَمَا مَنَعْتَ فَضْلَ مَا لَمْ تَعْمَلْ يَدَاكَ»[1]. وروى الإمام مالك: «أَنَّ الضَّحَّاكَ بْنَ خَلِيفَةَ سَاقَ خَلِيجًا لَهُ مِنْ الْعُرَيْضِ[2]، فَأَرَادَ أَنْ يَمُرَّ بِهِ فِي أَرْضِ مُحَمَّدِ بْنِ مَسْلَمَةَ، فَأَبَى مُحَمَّدٌ. فَقَالَ لَهُ الضَّحَّاكُ: لِمَ تَمْنَعُنِي وَهُوَ لَكَ مَنْفَعَةٌ، تَشْرَبُ بِهِ أَوَّلاً وَآخِراً وَلَا يَضُرُّكَ! فَأَبَى مُحَمَّدٌ. فَكَلَّمَ فِيهِ الضَّحَّاكُ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ، فَدَعَا عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ مُحَمَّدَ بْنَ مَسْلَمَةَ، فَأَمَرَهُ أَنْ يُخَلِّيَ سَبِيلَهُ. فَقَالَ مُحَمَّدٌ: لَا. فَقَالَ عُمَرُ: لِمَ تَمْنَعُ أَخَاكَ مَا يَنْفَعُهُ وَهُوَ لَكَ نَافِعٌ تَسْقِي بِهِ أَوَّلاً وَآخِراً وَهُوَ لَا يَضُرُّكَ! فَقَالَ مُحَمَّدٌ: لَا وَاللَّهِ. فَقَالَ عُمَرُ: وَاللَّهِ لَيَمُرَّنَّ بِهِ وَلَو عَلَى بَطنِكَ. فَأَمَرَهُ عُمَرُ أَنْ يَمُرَّ بِهِ، فَفَعَلَ الضحَّاكُ»[3].

وقد حذّرت بعض الأحاديث من زوال النعمة عمّن ترك اصطناع المعروف وهو قادر عليه. فروى الطبراني عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن لله أقواماً اختصّهم بالنّعم لمنافع العباد، يُقرّهم فيها ما**

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٢٣٦٩).

(٢) الخليج: ساقية تؤخذ من النهر الكبير، والعُرَيض: بضم العين وفتح الراء: موضع معروف من نواحي المدينة.

(٣) موطأ مالك برقم (٢٧٦٠).

بذلوها، فإذا منعوها نزعها منهم فحوّلها إلى غيرهم»[1]، أي: إن من عباد الله من أفاض الله عليهم من واسع نعمه من أجل أن يسخّروها في نفع الناس، كمن أنعم الله عليه بمنصب أو بوظيفة في الشأن العام، فما دام يسخّر وظيفته في مساعدة الناس أدامها الله تعالى عليه، أما إذا امتنع من مساعدة الناس فسيسلبها الله تعالى منه ويجعلها في يد غيره، ممن هو أنفع للناس منه.

ويدخل في هذا المعنى الملوك والحكام إذا تركوا اصطناع المعروف، فإن مُلكهم يصير إلى زوال لأنهم أقدر الناس على فعل المعروف. قال ابن خلدون رَحِمَهُ اللَّهُ: «إذا نظرنا في أهل العصبيّة ومن حصل لهم الغَلَب على كثير من النواحي والأمم، وجدناهم يتنافسون في الخير وخِلاله، من الكرم والعفو عن الزّلات، والاحتمال من غير القادر، والقِرى للضيوف، وحمل الكَلّ وكسْب المعدم، والصّبر على المكاره والوفاء بالعهد، وبذل الأموال في صوْن الأعراض، وتعظيم الشريعة وإجلال العلماء الحاملين لها، والوقوف عند ما يُحدّدونه لهم من

(١) أخرجه الطبراني في الكبير والأوسط، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب برقم (٢٦١٧).

فعل أو ترك وحسن الظن بهم، واعتقاد أهل الدّين والتبرّك بهم ورغبة الدعاء منهم، والحياء من الأكابر والمشايخ وتوقيرهم وإجلالهم، والانقياد إلى الحق مع الدّاعي إليه، وإنصاف المستضعفين من أنفسهم، والتبذل في أحوالهم، والانقياد للحق والتواضع للمسكين، واستماع شكوى المستغيثين، والتديّن بالشرائع والعبادات، والقيام عليها وعلى أسبابها والتجافي عن الغدر والمكر والخديعة ونقض العهد وأمثال ذلك، علمنا أن هذه خلق السياسة قد حصلت لديهم واستحقوا بها أن يكونوا ساسة لمن تحت أيديهم، أو على العموم، وأنه خير ساقه الله تعالى إليهم مناسب لعصبيّتهم وغَلَبهم، وليس ذلك سُدىً فيهم، ولا وُجد عبثاً منهم، والمُلك أنسبُ المراتب والخيرات لعصبيّتهم، فعلمنا بذلك أن الله تأذّن لهم بالمُلك وساقه إليهم. وبالعكس من ذلك إذا تأذّن الله بانقراض المُلك من أمّة، حملهم على ارتكاب المذمومات وانتحال الرذائل، وسلوك طرقها، فتُفقد الفضائل السياسية منهم جملة، ولا تزال في انتقاص إلى أن يخرج المُلك من أيديهم، ويتبدّل به سواهم ليكون نعياً عليهم في سلب ما كان الله قد آتاهم من الملك، وجعل في أيديهم من الخير، ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا

﴿ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾﴾[1]. واستقرِىء ذلك وتتبّعه في الأمم السابقة تجد كثيراً ممّا قلناه ورسمناه، والله يخلق ما يشاء ويختار»[2].

صدقة السرّ

ونأتي الآن بعون الله تعالى إلى شرح الكلمة الثانية وهي: «**وصدقة السرّ تطفئ غضب الربّ**».

لفظ (الصدقة) يُطلق في الكتاب والسنّة على معنى صدقة التطوّع، كما يُطلق على معنى الزكاة الواجبة، بخلاف ما تعارف عليه الناس من حصر لفظ الصدقة بصدقة التطوّع. وقوله في الحديث: «**صدقة السر**» يُراد بها هنا صدقة التطوّع، والقرينة على ذلك: أن صدقة التطوّع هي التي يُستحب الإسرارُ بها وإخفاؤها عن أعين الناس، بخلاف الزكاة الواجبة حيث يستحبّ إعلانُها وإظهارُها.

واذا تتّبعنا سائر العبادات في الشريعة، وجدنا: أن

---

(١) الإسراء: ١٦.

(٢) مقدّمة ابن خلدون (١/ ٧١).

إخفاء التطوّع فيها أفضل، إذ هو أقرب إلى الإخلاص وأبعد عن السّمعة والرياء، كما أن إظهار الفريضة فيها أفضل، من أجل أن يقتدي الناس بفعله. ودليل ذلك ما رواه النسائي عن زيد بن ثابت رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**صلوا أيها الناس في بيوتكم فإن أفضل صلاة المرء في بيته إلا الصلاة المكتوبة**»[1]. وروى البيهقي عن ضمرة بن حبيب عن رجل من أصحاب رسول الله ﷺ قال: «**فضل صلاة الرجل في بيته على صلاته حيث يراه الناس كفضل الفريضة على التطوّع**»، قال البيهقي رحمه الله: «وهذا في صلاة النفل»[2].

وكان السّلف يستحبّون أن يكون للرجل خبيئة من عمل صالح لا يعلم بها أحد، من صدقة في السرّ أو كفالة ليتيم أو قيام في الأسحار أو صيام في النهار أو نحو ذلك. قال الزبير بن العوام رضي الله عنه: «من استطاع منكم أن يكون له خِبء من عمل صالح فليفعل»[3].

---

(١) أخرجه النسائي، وصحّحه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب برقم (٤٤٠).

(٢) أخرجه البيهقي في شُعَب الإيمان برقم (٣٢٥٩)، وصحّحه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب برقم (٤٤١).

(٣) أخرجه الضياء، وصحّحه الألباني في صحيح وضعيف الجامع الصغير برقم (١٠٩٦٢).

فعلى العبد أن يحرص على خصلة من صالح عمله فيسترها عن الخلق، ويُخلص فيها لله تعالى ويدّخرها ليوم فاقته وفقره، عسى أن يصل إليه نفعُها أحوج ما يكون إليه. قال رسولُ اللَّه ﷺ: «**إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْعَبْدَ التَّقِي الْغَنِي الْخَفِي**»[(١)]. والمراد بالغنيّ غنيّ النفس، فإنه الغنى المحبوب، كما قال ﷺ: «**لَيْسَ الْغِنَى عَنْ كَثْرَةِ الْعَرَضِ**[(٢)] **وَلَكِنَّ الْغِنَى غِنَى النَّفْسِ**»[(٣)]. وأما التقيّ فهو من يترك المعاصي امتثالاً للمأمور به واجتناباً للمنهي عنه. والخفيّ: ذُكِر للتتميم، كما قال ابن حجر، إشارة إلى ترك الرّياء والله أعلم[(٤)].

(١) أخرجه مسلم برقم (٧٦٢١).
(٢) العَرَض: متاع الدنيا.
(٣) أخرجه البخاري برقم (٦٠٨١)، ومسلم برقم (٢٤٦٧) من حديث أبي هريرة.
(٤) انظر سبل السلام للصنعاني (١٧٨/٤)، وفتح الباري لابن حجر (٢٧٦/١١).

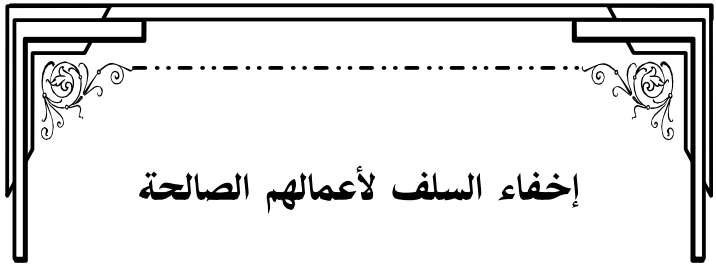

إخفاء السلف لأعمالهم الصالحة

كَانَ السَّلَفُ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ يَأْتُونَ بِالْمَسَائِلِ الْعَظِيمَةِ وَالْفَوَائِدِ النَّفِيسَةِ وَلَا يُرِيدُونَ أَنْ تُنْسَبَ إِلَيْهِمْ خَوْفًا عَلَى أَنْفُسِهِمْ مِنْ الرِّيَاءِ وَالسُّمْعَةِ، فَكَانُوا مِنْ ذَلِكَ بُرَآءَ لِشِدَّةِ إِخْلَاصِهِمْ وَمُرَاقَبَتِهِمْ لِرَبِّهِمْ فِي أَعْمَالِهِمْ. وَقَدْ قَالَ الْفَقِيهُ الْإِمَامُ أَبُو بَكْرِ بْنُ الْعَرَبِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي مَرَاقِي الزُّلْفَى لَهُ: رُوِيَ عَنْ الشَّافِعِيِّ ﵁ أَنَّهُ قَالَ: وَدِدْت أَنَّ النَّاسَ انْتَفَعُوا بِهَذَا الْعِلْمِ وَلَا يُنْسَبُ إِلَيَّ مِنْهُ شَيْءٌ. وَقَالَ أَيْضاً ﵁: مَا نَاظَرْت أَحَدًا قَطُّ فَأَحْبَبْت أَنْ يُخْطِئَ. وَقَالَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: مَا كَلَّمْتُ أَحَدًا قَطُّ إِلَّا أَحْبَبْتُ أَنْ يُوَفَّقَ وَيُسَدَّدَ وَيُعَانَ وَتَكُونَ عَلَيْهِ رِعَايَةٌ مِنْ اللَّهِ تَعَالَى(١).

(١) المدخل (١/ ١١٩) لأبي عبدالله محمد بن محمد بن محمد العبدري الفاسي المالكي الشهير بابن الحاج المتوفى سنة ٧٣٧هـ.

وهذا الإمام الماوردي رَحِمَهُ ٱللَّهُ صاحب التصانيف الحِسان، قال عنه الإمام السبكي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«وقيل إنه لم يظهر شيئاً من تصانيفه في حياته، وجمعها في موضع، فلما دَنَت وفاتُه قال لمن يثق به: الكتب التي في المكان الفلاني كلها تصنيفي وإنما لم أُظهرها لأني لم أجد نيّة خالصة، فإذا عاينتُ الموت ووقعتُ في النّزع فاجعل يدك في يدي، فإن قبضتُ عليها وعصرتُها فاعلم أنه لم يُتقبل مني شيء منها، فاعمَد إلى الكتب وألقِها في دِجلة، وإن بسطتُ يدي ولم أقبض على يدك فاعلم أنها قد قُبلت وأني قد ظفرت بما كنتُ أرجوه من النيّة. قال ذلك الشخص: فلما قارب الموت وضعتُ يدي في يده فبسطها ولم يَقبض على يدي، فعلمتُ أنها علامة القَبول فأظهرتُ كتبَه بعده.

قلت: لعل هذا بالنسبة إلى الحاوي، وإلا فقد رأيتُ من مصنّفاته غيره كثيراً وعليه خطّه، ومنه ما أكملت قراءته عليه في حياته»[1].

وورد أن داود بن أبي هند صام أربعين سنة لا يعلم به أهله، وكان خرّازاً يحمل غداءه من عندهم،

(١) طبقات الشافعية الكبرى (٥/ ٢٦٩).

فيتصدّق به في الطريق، ويرجع عشيّاً فيُفطر معهم[1].

وكان زين العابدين علي بن الحسين ينفق على أهل مئة بيت في المدينة، يأتيهم في الليل بالطعام ولا يعرفون مَن الآتي به، حتى مات ففقدوا ذلك؛ فعرفوا أن ذلك منه، ووجدوا في ظهره أثراً من نقل الطعام إلى بيوت الأرامل[2].

وقال سفيان: أخبرتني سُرّية الربيع بن خثيم قالت: كان عمل الربيع كله سراً، إن كان ليجيء الرجل وقد نشر المصحف فيغطيه بثوبه[3].

وكان ابن المبارك يضع اللثام على وجهه عند القتال لئلا يُعرف، قال أحمد: «ما رفع الله ابن المبارك إلا بخبيئة كانت له»[4].

ومعنى قوله في الحديث «وصدقة السر تطفئ غضب الرب»: أي إذا غضب الله تعالى على عبده بسبب معاصيه، وأراد أن ينزل به عقابه، فإن وُجد في أعمال هذا العبد صدقة في السرّ، فإنها تحميه من غضب الله تعالى وتصرف

---

(١) حلية الأولياء للأصفهاني (٣/ ٩٤).
(٢) انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (٣/ ٣٩٣ ـ ٣٩٤).
(٣) حلية الأولياء للأصفهاني (٢/ ١٠٧).
(٤) صفة الصفوة لابن الجوزي (٤/ ١١٥، ١٤٦).

عنه العقوبة التي كانت ستنزل به. قال المناوي رَحِمَهُ اللَّهُ: يعني تمنع نزول المكروه في الدنيا والآخرة[1].

كذلك تحميه الصدقة من غضب الله تعالى في ساحة المحشر، يوم يغضب الله تعالى غضباً شديداً، كما ورد في الحديث: «... **وَيُجْمَعُ النَّاسُ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، يُسْمِعُهُمُ الدَّاعِي، وَيَنْفُذُهُمُ الْبَصَرُ، وَتَدْنُو الشَّمْسُ، فَيَبْلُغُ النَّاسَ مِنَ الْغَمِّ وَالْكَرْبِ مَا لاَ يُطِيقُونَ وَلاَ يَحْتَمِلُونَ. فَيَقُولُ النَّاسُ: أَلاَ تَرَوْنَ مَا قَدْ بَلَغَكُمْ، أَلاَ تَنْظُرُونَ مَنْ يَشْفَعُ لَكُمْ إِلَى رَبِّكُمْ؟ فَيَقُولُ بَعْضُ النَّاسِ لِبَعْضٍ: عَلَيْكُمْ بِآدَمَ، فَيَأْتُونَ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَيَقُولُونَ لَهُ: أَنْتَ أَبُو الْبَشَرِ خَلَقَكَ اللَّهُ بِيَدِهِ، وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ، وَأَمَرَ الْمَلاَئِكَةَ فَسَجَدُوا لَكَ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلاَ تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ، أَلاَ تَرَى إِلَى مَا قَدْ بَلَغَنَا! فَيَقُولُ آدَمُ: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ...**»[2]، ففي هذا اليوم العصيب تتحوّل صدقته إلى مظلّة تحميه من حرّ الشمس. روى أحمد عن عقبة بن عامر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال:

---

(١) التيسير بشرح الجامع الصغير للمناوي (٢/ ١٧٤).

(٢) أخرجه البخاري برقم (٤٧١٢).

سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**كل امرىء في ظلّ صدقته حتى يُقضى بين الناس**»[1].

كما تحميه الصدقة أيضاً من حرّ القبر. روى الطبراني عن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنّ الصّدقة لَتطفئُ عن أهْلِها حرَّ القُبورِ**» الحديث[2].

والحديثان الأخيران، وإن كانا واردَيْن في عموم الصدقة، فإن صدقة السرّ تدخل فيهما من باب أولى.

❋ ❋ ❋

صلة الرحم

❍ **وأما الكلمة الثالثة والأخيرة فهي قوله: «وصلة الرحم تزيد في العمر».**

وصلة الرحم يُقصد بها: الإحسان إلى الأقارب وإن بَعُدت قرابتُهم، والتعطّف عليهم والرعاية لأحوالهم

---

(١) أخرجه أحمد، وصحّحه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب برقم (٨٧٢).

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير، وصحّحه الألباني في الصحيحة برقم (٣٤٨٤).

والرفق بهم وإن تعدّوا وأساؤا. وأصل الصلة من الوصل، فكأنه بالإحسان إليهم قد وصل ما بينه وبينهم من القرابة وشدّ من لُحمتها.

وقوله: «**تزيد في العمر**» أي: تُطيل العُمُر. ومن المعلوم أن الأجل مكتوب لا يتغيّر عما قدّره الله تعالى وقضاه في الأزل ويستحيل زيادته أو نقصه، كما قال تعالى: ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا۟ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾﴾[1]، وقال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾﴾[2]. وروى مسلم عَنْ عَبْدِاللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ ﷺ قَالَ: قالت أُمُّ حَبِيبَةَ: اللَّهُمَّ مَتِّعْنِي بِزَوْجِي رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَبِأَبِي أَبِي سُفْيَانَ وَبِأَخِي مُعَاوِيَةَ. فَقَالَ لَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**إِنَّكِ سَأَلْتِ اللَّهَ لآجَالٍ مَضْرُوبَةٍ وَآثَارٍ مَوْطُوءَةٍ وَأَرْزَاقٍ مَقْسُومَةٍ، لاَ يُعَجِّلُ شَيْئًا مِنْهَا قَبْلَ حِلِّهِ[3] وَلاَ يُؤَخِّرُ مِنْهَا شَيْئًا بَعْدَ حِلِّهِ. وَلَوْ سَأَلْتِ اللَّهَ أَنْ يُعَافِيَكِ مِنْ عَذَابٍ فِي النَّارِ وَعَذَابٍ فِي الْقَبْرِ لَكَانَ خَيْراً لَكِ**»[4].

---

(١) المنافقون: ١١.
(٢) الأعراف: ٣٤.
(٣) حله: أي وقته وحينه.
(٤) أخرجه مسلم برقم (٦٩٤٣).

فالآيات والأحاديث صريحة في أن الآجال والأرزاق مقدّرة لا تتغيّر عما قدّره الله تعالى وعلمه في الأزل. وإذا كان الأمر كذلك، فما المراد إذاً بزيادة العُمُر الواردة في الحديث: «**وصلة الرحم تزيد في العمر**»؟ وكيف تزيد صِلة الرَّحم في أجلٍ لا يُتأخَّر عنه ولا يُتَقدَّم؟ وقد أجاب العلماء عن هذا الحديث وما في معناه من الأحاديث بعدّة أجوبة. ويمكن أن نُجمل كلامهم في المسألة بقولين اثنين:

القول الأول: أن الزيادة على حقيقتها، ولا تعارض في ذلك بين هذا القول وبين الآيات والأحاديث الدالة على أن الآجال مقدّرة بوقت محدّد لا تتغيّر عنه، لأن ما ورد من تغيّر فإنما هو بالنِّسبة إلى عِلم المَلك المُوَكَّل بالعُمر، وليس بالنسبة إلى علم الله تعالى. كأن يُقال للمَلك الموكّل بالعمر مثلاً: إنَّ عمر فلانٍ مِئة سنةٍ إن وصل رحمه، وستون سنة إن قطعها، والمَلَك لا يعلم مسبقاً كيف سيكون حاله مع صلة الرحم، وبالتالي لا يعلم سلفاً أيّ الأجلين سيُقضى عليه به، في حين أن الله تعالى يعلم مسبقاً كيف سيكون حال فلان هذا مع صلة الرحم، كما يعلم سلفاً الوقت الذي سينتهي إليه فيه أجَلُه. فحين نقول: بأن أجل الإنسان محدّد بوقت لا يتقدَّم عنه ولا يتأخَّر، فهذا صحيح بالنسبة إلى

علم الله ﷻ. وحين نقول: بزيادة العمر أو نقصه، فهذا أيضاً صحيح ولكن بالنسبة إلى عِلم المَلك، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٣٩﴾﴾[1]، فالمحو والإثبات بالنِّسبة لما في علم المَلك، وأما ما في أمِّ الكتاب فهو الذي في علم الله تعالى فلا محو فيه ألبتة، ويقال له القضاء المُبرَم، ويقال للأوّل القضاء المعلَق، والله أعلم.

القول الثاني: أن الزِّيادة ليست على حقيقتها بل هي مجازيّة، وإن تنوّعت تأويلات العلماء في تفسير مجازها.

ـ فمنهم من قال: بأنها كنايةٌ عن البَركة في العُمر، بأن يُوفّقه الله تعالى إلى عِمارة وقته بما ينفعه في الدنيا والآخرة.

ـ ومنهم من قال: بأنها كناية عن عافية الأبدان والزِيادة في الأفهام والعقول والبصائر.

ـ ومنهم من قال: بأنها كناية عن بقاء أثر الواصل بعد موته، وهذا مأخوذٌ من لفظ بعض الأحاديث، وهو قوله ﷺ: «**مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُبْسَطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ، وَأَنْ يُنْسَأَ لَهُ فِي**

---

(١) الرعد: ٣٩.

أَثَرِهِ، فَلْيَصِلْ رَحِمَه»[1]، فقوله: **«يُنسأ له في أثره»** أي: يُبقي الله أثر واصل الرَّحم وذِكره الطيّب في الدنيا طويلاً، فلا يضمحلّ سريعاً كما يضمحلُّ أثر قاطع الرحم.

ـ ومنهم من قال: بأنها كناية عن استمرار كسبه للحسنات من خلال ذُرِّيَّة صالحة يَدْعُونَ لَهُ مِن بَعْدِه، فكأنَّه بقيَ حيّاً وعَمِل وازداد من الحسنات. ويؤيّده ما ورد في حديثٍ عن أبي الدرداء ﷺ قال: «ذُكر عند رسول الله ﷺ «من وَصل رحمه أُنْسِيءَ له في أجله»، فقال: **«إنَّه لَيْس زيادة فِي عُمْره، قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ﴾ ولكِنَّ الرجلَ تَكُون لَهُ الذرِيَّة الصالحة يَدْعُونَ لَهُ مِن بَعْدِهِ»**[2].

ولو صح هذا الحديث لكان فيصلاً في حسم الخلاف، ولكنه لم يصح. والأصل في الشريعة أن تحمل الألفاظ فيها على الحقيقة لا على المجاز، إلا إذا تعذّر حملها على الحقيقة فيُضطر حينها إلى تأويلها وحملها على المجاز. وحمل زيادة العمر في حديثنا هذا على حقيقة الزيادة غير متعذّر، لأنه ليس هناك نص

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٥٩٨٥) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) أخرجه الطبراني في الصغير بسند ضعيف عن أبي الدرداء، كما قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري (١٠/٤١٦).

صحيح صريح يمنع من ذلك. وأما النصوص التي أوردوها والتي يُفهم منها المنع من حمل الزيادة على المعنى الحقيقي، فيمكن الجمع والتوفيق بينها وبين النصوص المُثبتة لزيادة الأجل حقيقة: بأن نَحمِل نصوص المنع على ما يتعلق بعلم الله تعالى، ونحمل نصوص الإثبات على ما يتعلق بعلم المَلك الموكّل بالعُمر. فنقول: تمتنع أي زيادة في العمر على ما قضاه الله تعالى وسبق في علمه، ولكن لا تمتنع الزيادة على ما في علم الملك.

وأقوى ما استدل به المانعون لحقيقة الزيادة هو: حديث أم حبيبة ﵂، حين سألت ربّها أن يزيد في عمر زوجها وأبيها وأخيها، فقالت: «اللَّهُمَّ مَتِّعْنِي بِزَوْجِي رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَبِأَبِي أَبِي سُفْيَانَ وَبِأَخِي مُعَاوِيَةَ»، فصرفها رسولُ الله ﷺ عن هذه الدعوة، مبيّناً لها أن هذه الآجال محدّدة بوقت ثابت لا تزيد عنه ولا تنقص منه، وهو حديث صحيح كونه رواه مسلم في صحيحه[1]. والجواب عن هذا الحديث: أن رسول الله ﷺ لم يُعجبه أن تنشغل زوجته بهذه الأماني لأنها من أمور الدنيا، بل أحبّ لها أن تنصرف بكلّيتها

(١) سبق تخريجه.

إلى أمور الآخرة، فتدعو الله تعالى أَنْ يُعَافِيَها مِنْ عَذَابِ النَّارِ وَمن عَذَابِ الْقَبْرِ، بالإضافة إلى أن الدعوة بطول العمر ليست دائماً دعوة خير لصاحبها إلا إذا قُرِن بحسن العمل. إذ روى الترمذي عن عبدالرحمٰن بن أبي بكرة عن أبيه أن رجلاً قال: يا رسول الله أي الناس خير؟ قال: «**من طال عمره وحسن عمله**». قال: فأي الناس شر؟ قال: «**من طال عمره وساء عمله**»(١).

ومما يدلّ على التوجيه الذي ذكرته لمعنى الحديث: أن النبي ﷺ لم يمنع من استعمال هذه الدعوة مطلقاً، بل دعا بها لبعض أصحابه. فروى البخاري في الأدب المفرد عن أنس رضي الله عنه قال: «كان النبي ﷺ يدخل علينا ـ أهل البيت ـ فدخل يوماً، فدعا لنا، فقالت أم سُليم: خُوَيْدِمُك ألا تدعو له؟ قال: «**اللَّهم أكثر ماله وولده، وأطِل حياته، واغفر له**»، فدعا لي بثلاث. فدَفنتُ مائة وثلاثة، وإن ثمرتي لتطعم في السنة مرّتين، وطالت حياتي حتى استحييتُ من الناس، وأرجو المغفرة»(٢). فأنس رضي الله عنه كان يقوم بخدمة النبي ﷺ حتى خدمه عشر

---

(١) أخرجه الترمذي وقال: هذا حديث حسن صحيح، كما صحّحه الألباني في صحيح وضعيف سنن الترمذي برقم (٢٣٣٠).

(٢) أخرجه البخاري في الأدب المفرد، وصحّحه الألباني في صحيح الأدب المفرد برقم (٥٠٩/٦٥٣).

سنين، وكان النبي ﷺ يزوره كثيراً في بيته إكراماً له ولأهل بيته. وفي إحدى الزيارات طلبت أم أنس، وكُنيتها أم سُليم، من النبي ﷺ أن يدعو لابنها، فدعا له بثلاث دعوات. الأولى: أن يُكثّر الله ماله وولده. والثانية: أن يُطيل عمره. والثالثة: أن يُغفر له. يقول أنس رضي الله عنه: فكثّر الله تعالى أولادي لدرجة أنه مات منهم في حياتي مائة وثلاثة فقمت بدفنهم، وفي ذكر هذا دلالة على كثرة ما جاءه من الولد، فإن هذا القَدْر هو الذي مات منهم، وأما الذين بَقوا، ففي رواية عند مسلم: «إِنَّ وَلَدِي وَوَلَدَ وَلَدِي لَيَتَعَادُّونَ عَلَى نَحْوِ الْمِائَةِ الْيَوْمَ»[1]، فكان أكثر الصحابة ولداً. كما كثّر الله تعالى أمواله، قال أنس رضي الله عنه ـ كما في رواية لأبي نعيم في الحلية ـ: «وإن أرضي لتُثمر في السنة مرّتين وما في البلد شيء يُثمر مرّتين غيرها»[2]. وفي رواية عند أحمد قال أنس رضي الله عنه: «وَمَا أَصْبَحَ فِي الأَنْصَارِ رَجُلٌ أَكْثَرَ منّي مالاً»[3].

كما أطال الله تعالى في عمره حتى كان يستحي من الناس لطول عمره، وحتى قال: «لقد بَقيتُ حتى

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٦٥٣١).

(٢) حلية الأولياء لأبي نعيم (٨/ ٢٦٧).

(٣) أخرجه أحمد برقم (١٣٩٤٤).

سئمت من الحياة»[1]. وهو آخر من مات بالبصرة من الصحابة سنة إحدى وتسعين، وله من العمر مائة وثلاث سنين[2]، ودفن في قصره على نحو فرسخ ونصف من البصرة.

فلو كانت الدعوة بطول العمر لا تغني شيئاً، لما استعملها النبي ﷺ في حق أنس رضي الله عنه، ولما حملها أنس رضي الله عنه على المعنى الحقيقي لطول العمر، حتى ذكر أن حياته طالت لدرجة أنه كان يستحي من الناس. وإنما لم يستحبّها النبي ﷺ من أم حبيبة رضي الله عنها لأنها في مقام القدوة في حق نساء الأمة، فأرشدها ﷺ إلى أن تجعل الآخرة أكبر همّها وليس أمور الدنيا. والله تعالى أعلم.

(١) عمدة القاري شرح صحيح البخاري (١/ ٣٧٣).
(٢) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (١٧/ ٢٢٨).

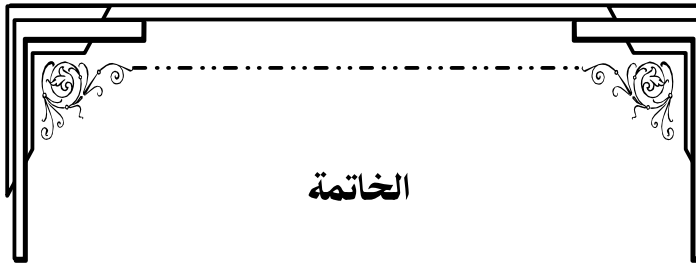

الخاتمة

وفي الختام نسأل الله تعالى أن ينفعنا بهذا الحديث، وأن يرزقنا العلم النافع والعمل الصالح، إنه سميع مجيب.

❁ ❁ ❁ ❁

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٥
متن الحديث	٧
شرح الحديث	٧
معنى: صنائع المعروف	٧
صنائع المعروف عند الأنبياء	١٠
معنى تقي مصارع السوء	١٤
ثمرات صنائع المعروف	١٨
التحذير من عدم بذل المعروف	٢٢
صدقة السر	٢٦
إخفاء السلف لأعمالهم الصالحة	٢٩
معنى: تطفئ غضب الرب	٣١
معنى: صلة الرحم وزيادة العمر	٣٣
الخاتمة	٤٢
الفهرس	٤٣